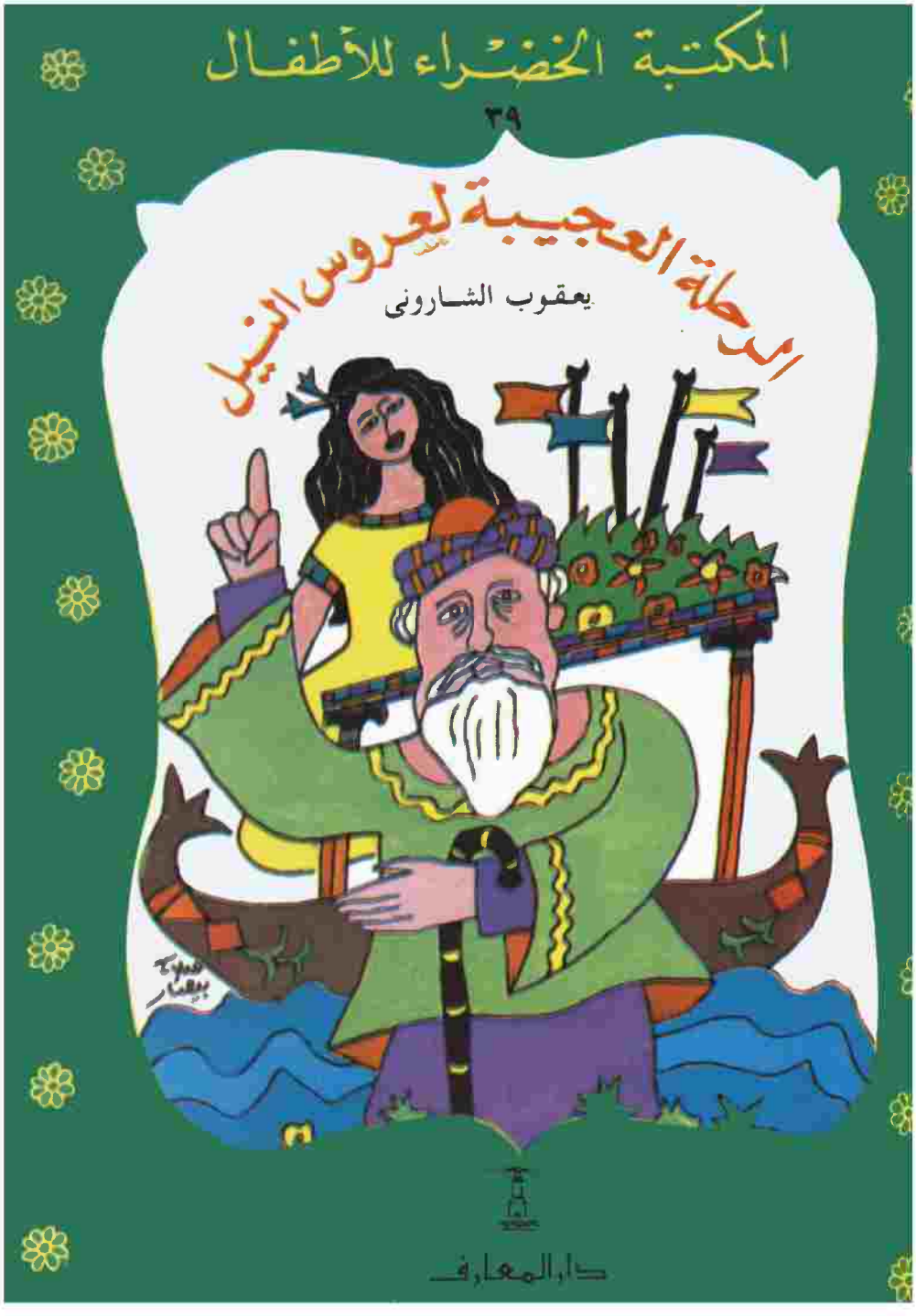
المكتبة الخضراء للأطفال
٣٩
الرحلة العجيبة لعروس النيل
يعقوب الشارونى
دار المعارف

المكتبة الخضراء للأطفال

الرحلة العجيبة لعروس النيل

(٣٩)

الطبعة السادسة

بقلم: يعقوب الشاروني

رسوم : صلاح البصار

دار المعارف

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الشارونى، يعقوب

الرحلة العجيبة لعروس النيل/ يعقوب الشارونى

- القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٦ .

٤٠ص ، ٢٤سم (الكتبة الخضراء للأطفال)

تدمك : ٥- ٦٩٢٥ - ٩٧٧٠٢

ديوان ٨١٣.٠٢

رقم الإيداع ٤٨٨٢/ ٢٠٠٦ ٧/٢٠٠٦/١٢

الناشر: دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail:marref@edsc.net.eg

كان الأصدقاء الخمسة قد تجمعوا فى حديقة بيت أمل، فقد تعودوا أن يتجمعوا مرة كل أسبوع فى منزل أحدهم.

كان الحديقة واسعة، تطل على شاطئ النيل، بها عدد كبير من أشجار البرتقال والليمون، وفى وسطها انطلقت أمل تطير فى الهواء فوق أرجوحة، تدلت من فرع شجرة جميز عجوز، ارتفعت من بين أغصانها أصوات تغريد طيور كثيرة.

وكان عادل ونبيل يتبادلان دفع الأرجوحة إلى الأمام وإلى الخلف، وسط ضحكات الأصدقاء، وصراخ أمل كلما ارتفعت الأرجوحة بها عالياً فى الهواء.

صاح نبيل ضاحكًا: "سنرفعك فى المرة القادمة إلى السماء!"

أما كلبهم عنتر، ذو الشعر الناعم الأسود الطويل والعينين البراقتين، فقد أخذ يتقافز فى مرح، كأنما يشاركهم لعبهم.

قالت دعاء، وقد استغرقت فى تأمل حركات عنتر: "ما رأيت أذكى من هذا الكلب.. لم يبق إلا أن يعلمه عادل النطق عما قريب".

هنا توقف عنتر عن لعبه، لتتابع عيناه أمل، وهى ترتفع عن الأرض وتنخفض.

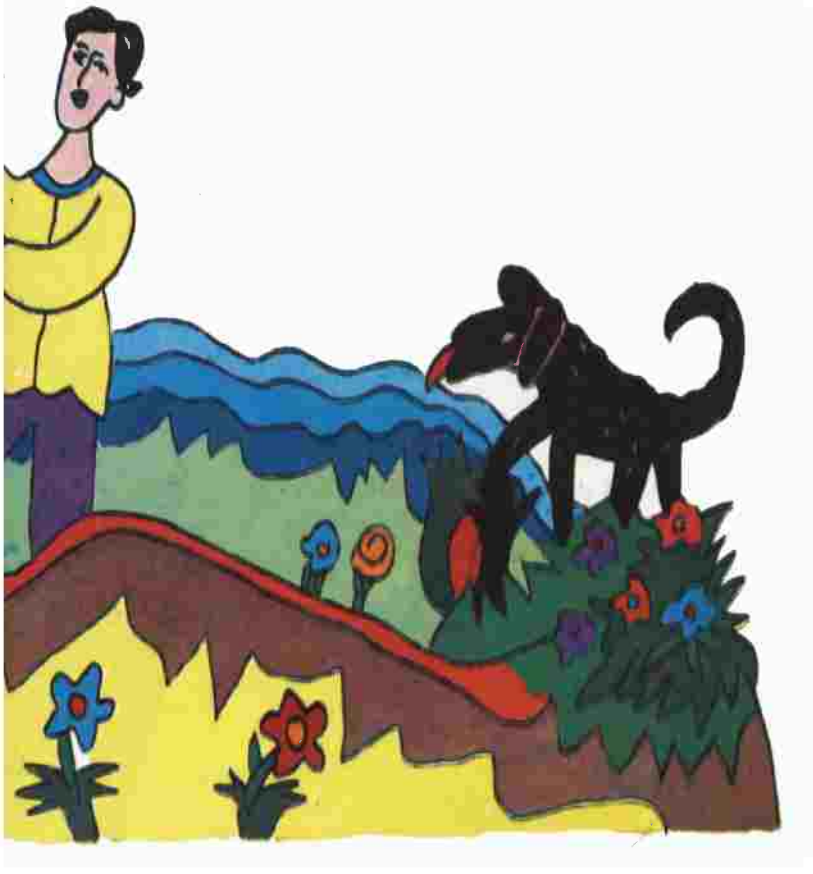

وفجأة سمع الأصدقاء صوت بكاء، سكت معه تغريد الطيور فوق شجرة الجميز.

لم يكن الصوت عالياً، لكنه كان يثير الشفقة.

وتوقف الأصدقاء عن لعبهم، وأنصتوا.

وأخيراً قطع علاء الصمت قائلاً: "أظنه صوت طفل ضل طريقه".

صاحت دعاء فى قلق: "طفل؟ ! ليذهب كل واحد منا فى اتجاه، يبحث عنه".

وكانت أمل الصغيرة أول من عاد، فوقفت تتلفت حولها فى حيرة بحثًا عن بقية الأصدقاء.

***

ثم ظهر نبيل، فقال لها ضاحكًا: "لا شك أننا سمعنا مؤاء قط. أما علاء، فقد صور له خياله الواسع، أنه يسمع بكاء طفل!!"

هنا رجع عادل مع علاء. قال عادل: " لم نجد أطفالاً.."

وأضاف علاء: "ولا حتى كبارًا!!"

فقال نبيل فى سخرية: "طبعًا... لأن القطة التى سمعت صوتها كانت تريد تسلق شجرة، وقد تسلقتها!!"

فى تلك اللحظة، وصلت دعاء، وعلى وجهها علامات الخيبة وهى تقول: "أين اختفى هذا الطفل؟! أخشى أن يكون قد سقط فى الماء النيل!" وقبل أن يطلق عليها نبيل سخرياته، عاد صوت البكاء يرتفع واضحًا من جديد! هنا أحس عنتر بحيرة أصحابه. وبذكاء الحيوان فهم أنهم يبحثون عن مصدر البكاء.

وفى هدوء، قام، وهز ذيله، وانطلق يستأنف البحث. واخترق عنتر حاجز أشجار البرتقال والليمون، وخرج من بينهما إلى الشاطئ النيل. ومن هناك، سمعه الأصدقاء ينبح نباحًا عالياً.

قالت أمل: "عنتر يدعونا إليه.. لقد عثر على شئ!!"

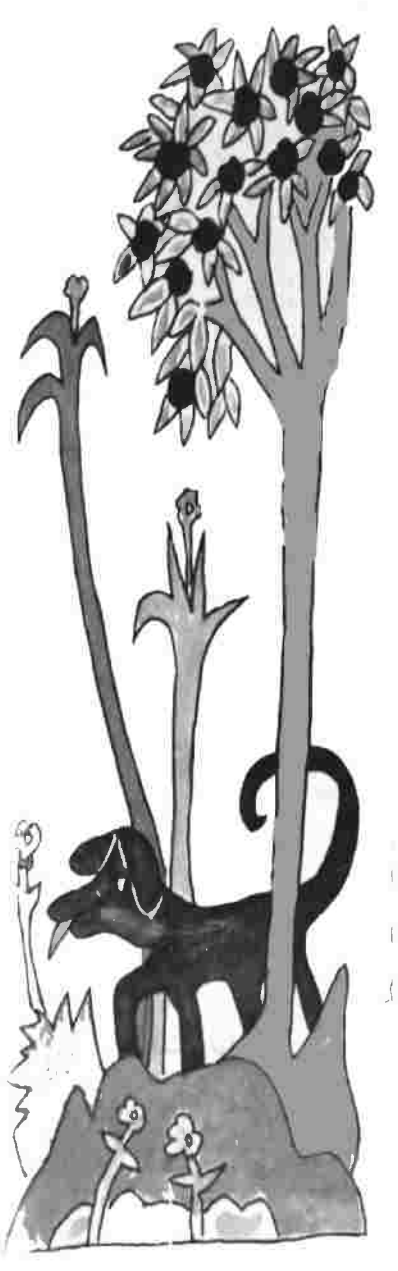

وأسرع الأصدقاء يجرون نحو عنتر. وكم كانت المفاجأة قوية بالنسبة إليهم جميعًا! لقد وقف الأصدقاء الخمسة بعضهم إلى جوار بعض، وقد تسمرت أقدامهم إلى الأرض، وعيونهم تنظر إلى الأمام فى ذهول!!

لم يكن البكاء صادرا عن طفل ضال كما ظنوا، بل كان يصدر عن آخر شخص يمكن أن يتوقعوا رؤيته يبكى على شاطئ النيل!!

صاح نبيل مضطربا، رغم ما يتصف به من خفة ظل، وهو لايزال متسمرا فى مكانه مع باقى الأصدقاء: "هل هذا حقيقى؟! أنا لا أصدق!! هل رأى أمامى حقا عروس النيل؟!"

قال علاء، ودهشته نبيل :" إنها هى بعينها.. ما الذى عاد بها إلى هنا، بعد أن ذهبت إلى عالمها فى أحضان النيل منذ يومين؟!"

وعادت الحوادث التى وقعت منذ يومين فقط،

تعيش حية مرة أخرى فى ذكراهم جميعا..

فقبل يومين، كانت مجموعة الأصدقاء "عادل ونبيل وعلاء ودعاء وأمل"، يقفون على شاطئ النيل، عند الحديقة التى تحيط بالمسلة الفرعونية، المطلة على شاطئ النيل قرب برج القاهرة، وقد ظهرت حولها فى كل مكان، نماذج من المبانى والنقوش الفرعونية الجميلة.

وفجأة قفزت أمل واقفة، وأشارت بيدها فى حماس إلى سفينة ترفرف فوقها الرايات بدأت تقترب من بعيد، وصاحت:"الاحتفال بدأ.." وانطلق الأصدقاء الخمسة يلوحون بأيديهم للسفينة، وهى تشق الماء، فخورة بنفسها فوق سطح النيل.

قال عادل:" إنها تشبه السفن الفرعونية. انظروا إلى الأعمدة التى تحمل سقفها.. لكل عمود تاج يشبه زهرة الوتس المتفتحة".

وأضافت دعاء: "وقرص الشمس بجناحيه المتميزين، يطل على كل ركن فيها".

وتزاحم حولهم ومن خلفهم، مئات ومئات من الصغار والكبار، يهتفون ويرفعون العلام، وقد جاءوا يشاركون فى الاحتفال "بوفاء النيل".

واقتربت السفينة الكبيرة من الشاطئ، وقد انتشرت فى كل جوانبها باقات من الورود، ورفرفت حولها بالونات معلقة مختلفة الأحجام والألوان.

ومن خلف السفينة الكبيرة، ظهر موكب من سفن أصغر حجما، مزخرفة برسوم فرعونية على شكل طيور وغزلان، وازدانت كلها بالورود وأغصان الأشجار والأوراق الملونة.

وظهرت فوق كل سفينة، مجموعات من الشباب والفتيات، يرتدون الملابس الفرعونية البيضاء، يميزها غطاء الرأس بأشرطته الصفراء والزرقاء، وحزام الوسط العريض يتدلى طرفه طويلاً من الأمم، تزينه رسوم نباتات البردى الرشيقة، وزهر اللتوتس المتفتحة.

وأمام الجماهير المحتشدة، توقفت السفينة القائدة، فظهرت فوقها منصة تبرق بلون الذهب، تلس فوقها "عروس النيل"، مشرقة الوجه، مبتهجة الملامح.

صاح علاء فى دهشة : "انظروا..... إن نصفها الأسفل يشبه ذيل السمكة!!"

وشاركه عدد كبير من المشاهدين فى دهشته، فأخذوا يتزاحمون ليروا عن قرب "ذيل" عروس النيل أشار إليه علاء، فهذا هو الذى يجعلها قادرة على أن تعيش داخل الماء، كما تعيش خارجه.

وفى نفس اللحظة، صاحت دعاء فى إعجاب شديد: "ما أجمل وجهها وشعرها!! إنها ملكة جمال عرائس البر والبحر..."

كان السحر يشع من عينيها، ووجهها يتألق كأنما يحيطه ضوء من السماء.

ومن جنبات السفينة، ارتفعت نغمات هادئة ناعمة، لم تلبث أن تحولت إلى موسيقى عالية مرحة.

ووقف رجل وقور، له لحية بيضاء كبيرة، يرتدى ملابس فضفاضة، منسوجة بخيوط الذهب والفضة. وما إن وقف، حتى وقف كل من كان بالسفينة، يتطلعون إلى وجهه، وينتظرون حديثه.

قال نبيل، وهو يشير إلى الرجل صاحب اللحية: "أعتقد أنه رئيس الاحتفال".

وظل الرجل يتقدم ببطء، إلى أن وصل أمام منصة عروس النيل. وفى هدوء رفع يده، فتوقفت الموسيقى، وسكتت الهتافات.

وجاء صوته عميقاً واضحًا، قوياً ومؤثراً، فأصغى إليه الأصدقاء الخمسة مع كل الناس فى اهتمام شديد وهو يقول:

"اعترافاً من أبناء مصر، بما يقدمه لهم النيل العظيم من خير وحياة، نحتفل اليوم، كما احتفل أجدادنا منذ مئات وآلاف السنين، بعيد فيضان النيل. إننا نتذكر اليوم صفة الوفاء من نهرنا الكريم. عن نيلنا العظيم من خير وحياة، نحتفل اليوم، كما احتفل أجدادنا منذ مئات وآلاف السنين، بعيد فيضان النيل. إننا نتذكر اليوم صفة الوفاء من نهرنا الكريم. إن نيلنا العظيم، لم ينس فى أى عام أبناءه، بنات وأولاد مصر، فيأتى إليهم كل صيف بماء الفيضان الغزير ،وما يحمله من طمى للأرض، وخصب للزرع".

همست أمل العادل، الذى كان يقف إلى جوارها: "ولماذا لا يأتى الفيضان الآن؟! إن ارتفاع الماء فى النيل، لا يتغير كثيراً فى الصيف عن الشتاء".

قال عادل: "هل نسيت السد العالى يا أمل؟! إنه يحجز خلفه الآن، الزائد من ماء الفيضان، لتستفيد به مصر، عندما يقل الماء الوارد إلينا من منابع النيل".

ورفعت عروس النيل يدها، وقد أشرق وجهها، وأخذت تلوح للجماهير بمنديل أخضر، فارتفعت هتافات الأصدقاء الخمسة، مع بقية الجمهور المحتشد، تحية لملكة الاحتفال.

وتقدمت ثمانى فتيات، يرتدين ملابس خضراء مثل الزرع، وصفراء ذهبية مثل القمح الناضج، وحملن المحفة التى كانت تجلس فوقها العروس الجميلة.

كان للمحفة أربع أذرع. وفى رقة، حملت فتاتان كل ذراع، وتقدمن بالعروس إلى موضع مفتوح فى حاجز السفينة، به منزلق ينتهى إلى سطح الماء.

وعند الحافة العليا للمنزلق، أنزلت الفتيات المحفة.

وواصلت العروس تحيتها للجماهير ،وهى تلوح بمنديلها،وتبتسم لهم ابتسامة الوداع.

وتقدمت الفتيات، وحملن عروس النيل من فوق المحفة.

وبحركة رشيقة، انزلقت العروس السعيدة من بين أيديهن، وتهادت إلى أحضان والدها النيل، لتعود إلى موطنها الأصلى فى الأعماق.

وارتفع تصفيق الجماهير وهتافهم، وقد تركزت عيونهم عند نقطة على سطح الماء، اختفت تحتها عروس النيل. كانوا كأنما يريدون بعيونهم شق الماء، ليعرفوا أين ذهبت!!.

***

وللمرة الثانية، تردد صوت صاحب اللحية البيضاء، رئيس الاحتفال، وهو يقول:

"وكما يحرض النيل على الوفاء بعهده لمصر، فيعطيها الخير والحياة، فإن أبناء مصر لابد أن يكونوا أوفياء له ، فيحرصوا على رعايته، والمحافظة على نظافته، وحمايته من أخطار التلوث".

وعادت السفينة تتهادى مبتعدة عن الشاطئ، فتفرق المشاهدون جماعات، كل جماعة تستعيد ما شاهدت وما سمعت.

واستدار الأصدقاء الخمسة، يسيرون على مهل، والمشاهد التى عاشوا معها تسيطر على خيالهم.

قالت دعاء:" فى المستقبل، ستنزلق عروس النيل إلى الماء من طائرة هيلوكبتر!!"

قال علاء ضاحكًا: "الحمد لله أنك لم تقولى من صاروخ!!".

***

تذكر الأصدقاء الخمسة كل هذا، وهم يقفون الآن فى دهشة وحيرة حول عروس النيل، التى عثروا عليها بعد أن عادت من النهر، تبكى، بعد يومين فقط من الاحتفال بوفاء النيل، الذى نزلت فيه إلى أعماق النهر.

واقتربوا من عروس النيل، وأحاطوا بها ، وقد ملأتهم الشفقة عليها.

كانت تجلس بين بعض النباتات الخضراء التى تغطى ضفة النهر، ونحلة صغيرة تدور حول رأسها، تبحث عن رحيق فى زهرة بين تلك النباتات.

قالت دعاء، وقد تمالكت نفسها قليلاً: "لماذا عادت؟ ! ولماذا تبكى يا ترى؟!"

واقتربت أمل الصغيرة، وطوقت عروس النيل بذارعيها، وقبلتها فى وجنتها، وهمست لها فى رقة وهى تبتسم:"والدتى تقول: البكاء لا يحل شيئًا.. امسحى دموعك".

ولم تحب عروس النيل

وبدأ علاء يفيق من دهشته، فقال: "هيا بنا نحملها إلى داخل الحقيقة، ثم نبحث عن سبب عودتها إلينا".

وسرعان ما تعاون الأصدقاء الخمسة، وحملوا عروس النيل إلى جوار الأرجوحة، تحت الجميزة، يتقدمهم عنتر، كأنما يعلن عن اكتشافهم الخطير!!.

استراحت عروس النيل، وقد التفت حولها الأصدقاء، واندس وسطهم عنتر، والقطة مشمشة، قطة أمل المدللة، والعصافير والطيور التى كفت عن التغريد. كان الجميع متلهفين لمعرفة سبب بكاء عروس النيل، وسبب عودتها إلى الشاطئ.

وأخرجت أمل منديلاً، جففت به دموع العروس، وهى تسألها ثانية بصوت منخفض، يملؤه القلق: "لماذا تبكين أيتها الجميلة الحزينة؟ ! هل هناك عروس تبكى؟!"

وأكملت دعاء التساؤل قائلة " لقد كنت سعيدة بعودتك إلى أحضان والدك النيل، فلماذا تركت زميلاتك تحت الماء؟ وكيف خرجت؟ وهل ستعودين مرة أخر؟!"

هنا قطعها نبيل قائلاً في مرح: "مأكل هذا السيل من الأسئلة أيتها الفتيات؟!"

ثم التفت إلى عروس النيل، يسألها ضاحكًا ليخفف عنها: "لقد شعرنا جميعًا بفرحتك عند نزولك إلى الماء.. هيا ابتسمى من جديد، وقولى لنا أولاً ما اسمك.."

قالت العروس، والكلمات تخرج غير واضحة من فهمها، بسبب شقهاتها وتنهداتها:

"اسمى وفاء، ورغم سعادتى يوم ذهبت إلى النهر الحبيب، فقد كنت آسفة لا بتعادى عن عالم البشر. لم يكن سهلاً أن أترك الشمس والطيور، وكل أصدقائى من الصغار والكبار، لكننى كنت سعيدة لذهابى كى أعيش من والدى النيل، فهو كثيراً ما أعطانا الحب والخير: أعطانا الأرض الخصبة، والزرع المثمر، والأسماك المتنوعة، والمياه مصدر الحياة، وما زال يعطينا الكثير. لكن حدثت لى أشياء غريبة عجيبة منذ نزلت إلى مجراه".

قال عادل فى اهتمام: "لا شك أنها أشياء الغرابة، تلك التى دفعت بك إلى الخروج بهذه السرعة نم أعماق النهر..".

قالت وفاء وهى تتنهد: "لو أن الجميع يهتمون بصحة النهر، كما يعتنون بصحتهم وصحة أبنائهم، لما حدث لى ما حدث!"

قالت دعاء في دهشة: "صحة النهر؟! هذه عبارة أسمعها لأول مرة!!"

قالت وفاء: "سأحكى لكم ما حدث، عندئذ ستفهمون ما الذى أقصده من هذه العبارة".

وبـدأت وفـاء حكايتهـا، وهـى تعبـر بملامـح وجههـا وحركـات يـديها، عـن مشـاعرها وانفعالاتها.

قالت: "عندما نزلت إلى الأعماق، وجدت نفسى فى عالم عجيب، لم أتخيل وجوده أبدًا.

كانت فى انتظارى عروس النيل صغيرة، أمسكت يدى، وقادتنى فوراً إلى داخل فقاعة كبيرة ، من مادة تشبه البلور، استقرت فوق قاع النيل، معزولة تمامًا عما حولها من ماء ونبات".

صاحت أمل: "أنا أحب صنع الفقاعات من الماء والصابون، فهل دخلت إلى فقاعة مثل تلك الفقاعات؟".

قال عادل: "أنت تتحدثين يا أمل عن فقاعة يمتلئ داخلها بالهواء، أما وفاء، فتتحدث عن مكان شبه الفقاعة، لكنه يمتلئ بالماء المعزول عن بقية ماء النيل، بواسطة غلاف كأنه الفقاعة".

قالت وفاء: "هذا صحيح..لقد كان الماء داخل الفقاعة صافياً شفافاً، يلمع تحت أشعة الشمس التى كانت تخترقه بسهولة بسب نقائه. وكما اعتدن أن نجد الماء، لم يكن له لون ولا طعم ولا رائحة، فقط نحس بهم رقيقًا وهو يداعب وجوهنا وأجسامنا".

هنا صاح علاء فى دهشة: "لقد رأيت فى فيلم سينمائى فقاعة مثل هذه، صنعها العلماء ليعيشوا داخلها فوق قاع البحر، لدراسة الأحياء البحرية التى توجد فى أعماق بعيدة عن سطح الماء".

قالت وفاء: "لكن هذه البلورة التى دخلت إليها، كانت النباتات الكثيفة تنمو داخلها. كانت نباتات نضرة زاهية متنوعة الأشكال، تتحرك بينها أسماك متعددة الأحجام رشيقة الحركات. وكلها نباتات وأسماك لا أتذكر أنى رأيت مثلها خارج البلورة.".

قال نبيل ضاحكًا: "كان يجب أن تأخذينى معك، لأرى كل هذه الغرائب والعجائب".

قالت وفاء: "انطلق معى بخيالك، فتزداد إعجابًا بما شاهدت.. لقد أخذت أتأمل كل ذلك الجمال حولى، حتى نسيت نفسى، فقط كانت انعكاسات الأضواء على الماء الصافى، وهى تسلل من خلال الفقاعة، تنقلنى إلى حلم مثل أحلام الخيال الجميل".

قال علاء:" لقد كانت أجلس ذات ليلة على شاطئ النيل، ورأيت تلك الأنعكاسات على المياه، وأحسست بنفس ما شعرب به يا وفاء".

وافقته وفاء قائلة: "لقد كان الجمال يحيط بى فعلاً من كل مكان.

وتلفت حولى، فرأيت عرائس كثيرة، تمتاز بالرقة والرشاقة، تتوسطها عروس تظهر من ملامحها أنها أكبرهن سنا، وعلى رأسها تاج مرصع باللؤلؤ والأصداف.."

قالت دعاء، وهى تداعب وفاة: "وهكذا دخلت إلى عالم كأنه عالم ألف ليلة وليلة!!"

نظرت إليها وفاء والحزن يملأ عينيها، وقالت: "لقد توقعت أن ترحب العرائس بمن كما يرحب أهل الأرض بضيوفهم. وكنت انتظر من كل هؤلاء الجميلات نظرات الود والصداقة، لكنهن نظرن إلى نظرات غريبة أقلقتنى، ثم قالت لى كبيرتهن فى غير ترحاب، جعلنى أفيق من أحلامى: ستبقين معنا، لكن كونى على حذر !!"

وتساءل علاء فى حيرة : "ولماذا الحذر؟!"

أجابت وفاء: "عندما سمعت هذه العبارة، نسيت كل ذلك الجمال، ولم أعد أرى الأضواء ولا الألوان ولا صفاء الماء، فقد صدمتنى عبارتها الجافة التى لم أفهم معناها، فسألتها وقد ازداد قلقى:أين أنا الآن؟.."

أجابتنى: "أنت فى برج عرائس النيل. ونحن العرائس التى شاركت فى احتفالات وفاء النيل السابقة، نعيش فى هذا العالم المائى مع النيل، والدنا العظيم: هو يقدم لنا الحياة بمائه وخيراته، ونحن نرعاه، ونحاول المحافظة على نظافته. لكننا لم نستطع أخيراً إلا تنظيف هذه الفقاعة، التى نسميها البرج، لنعيش فيها، بعد أن صنعتها عرائس النيل بمساعدة الأسماك. ونحن نحذرك، حتى لا تتسببى فى تلويثها".

قلت: "ولماذا تتوقعين أن ألوثها؟! لقد وصلت الآن فقط".

قالت: "هذا تحذير نقوله لكل من يدخل لأول مرة إلى برجنا النقى هذا".

سألها نبيل: "ومن كانت هذه؟ .. هل هى رئيستهن؟"

قالت وفاء: ظننت ذلك مثلك، فسألتها: "هل أنت الملكة هنا؟"

أجابت: "تقصدين هذا التاج الذى على رأى؟! إن والدنا النيل العظيم، يختار كل عام واحدة منا، تكون قد تميزت عن زميلاتها فى العناية به صافياً نظيفاً، ويضع فوق رأسها هذا التاج، فتظل تتزين به طوال العام".

قلت لها: "لكن لماذا هذا الاستقبال الجاف، الذى لم أكن أتوقعه؟".

في تلك اللحظة، اندفعت نحونا عروس أخرى، نحيفة الجسم، لها شعر ذهبى طويل، وقالت : "تقصدين أننا لم نرحب بك كما يجب؟! لقد اعتدنا يا وفاء أن نكون أكثر ترحاباً بضيوفنا، لكننا غاضبون من العالم الذى جئت منه".

قلت: "إنه عالم ملآن بالحب والخير والجمال".

قالت العروس ذات الشعر الذهبى: "بل أتيت من عالم أصبح يهدد حياة والدنا العظيم!"

قالت عادل مستنكرًا: "نحن نعرف جيدًا أن مصر هبة النيل،فكيف نفعل ذلك"؟

أكملت وفاء حديثها: "لقد شرحت العروس ذات الشعر الذهبى ما تقصد".

قالت لى: "كان الناس فيما مضى يحافظون على النيل، ويحرصون على صفاء مائه. أما الآن، فهم يمثلون خطرًا شديدًا عليه".

قلت: "يستحيل أن يكون هناك من يقصد فعل ذلك!"

قالت: "حتى تتأكدى بنفسك مما أقول، ستصحبك السمكة بلطية فى رحلة، لتشاهدى ما وصل إليه حال نيلنا".

قال علاء: "لقد حلمت كثيرًا أن أقوم برحلة فى قاع النيل!"

قالت وفاء: ليتك كنت معى، لترى ما رأيت. لقد خرجت أنا والسمكة بطلية من فقاعة البرج البلورية، فوجدت لون الماء خارجها متغيراً.. كان قد فقد شفافيته، وأصبح عكرًا.

وفى طريقنا ونحن نشق الماء، قابلنا بعض الأسلوب الصغيرة من الأسماك لم تكن تتحرك بالنشاط الذى اعتدت أن أعرفه عن أسماك النيل. كما شاهدت بعض النباتات، لكن معظمها كان قد فقد نضارته، وبدأ الذبول يظهر عليه.

وفجأة رأينا أمامنا سمكة كبيرة تتلوى، تصعد وتهبط من شدة الألم، ثم أخذت حركتها تخمد قليلا قليلاً، وهى ترتعد بشدة، إلى أن سكنت

تمامًا. ثم غاصت إلى القاع، حيث ارتمت بدون حركة.

قالت أمل فى انزعاج حقيقيى:" وهل تركتموها بغير إسعاف؟!"

قالت وفاء: بل أسرعنا إلى طبيب الأسماك: الدكتور قرموط.

قالت له بلطية: أسرع يا دكتور... زميلة أخرى لنا أصابها ما أصاب زميلات كثيرات خلال الفترة الأخيرة.

ولم ينتظر الدكتور قرموط ليسمع أكثر من ذلك، بل أخذ حقيبة أدواته، وأسرع معنا.

وانهمك يفحص السمكة التى استقرت ساكنة فوق القاع. نظر فى عينيها، وفتح خياشيمها، ووضع سماعته الطبية فوق أجزاء متعددة من جسمها. ثم توقف لحظة، عاد بعدها إلى فحصها بدقة من جديد.

وأخيراً نظر إلينا فى حزن، وقال: "لا فائدة...."

صاحت السمكة بلطية: "هل ماتت؟!"

قال الطبيب فى أسف: "قتلها التلوث هى أيضًا.. !!".

وشاهدت الدموع تتساقط من عينى السمكة البلطية، حزناً على صديقتها.

وفى أسى شديد قالت: "هل رأيت ياوفاء؟! الضحايا يتساقطون كل يوم، وأهل العالم الذى جئت منه يتجاهلون الخطر المميت الذى تسببوا فيه..."

***

وأكملت وفاء حكايتها. قالت:

وفجأة، قطعت بطلية حديثها، وصاحت: "انظرى.."

هنا أنهال فوق رأسى شلال من زجاجات البلاستيك والأكياس المملوءة بالقامة!!

وفى خوف سألت أمل: "هل أصابكما ذلك بأذى؟".

قالت وفاء: لقد جذبتنى بطلية بسرعة عن المكان وهى تقول: هيا بنا، حتى لا يصيبنا ما أصاب زميلتنا السمكة.

ورغم ذلك، أصابنا من الشلال شئ غير قليل، كما أصبحت رائحة الماء غير طبيعية!!

قالت بلطية، وهى لا تزال تشهدنى بعيدًا: "إننا نقضى وقتًا طويلاً كل يوم، لإبعاد ما نستطيع إبعاده من مثل هذه المخلفات، التى يلقيها علينا سكان العالم الذى جئت منه. لكن بسبب كثرة ما يتدفق فوقنا من سموم ونفايات،عجزنا عن الاحتفاظ بالنهر نظيفاً، وأصبحنا نسكن تلك الفقاعة التى نسميها برج عرائس النيل، لنحمى أنفسنا من مئات من أنواع التلوث الذى يحاصرنا فى كل مكان". ووصلنا إلى مكان يظهر فيه الماء أكثر صفاء، فقالت بطلية: "يبدو أن هذه المنطقة أكثر نظافة".

لكنها لم تكد تقول هذا، حتى تساقط فوقنا، على غير انتظار، تراب كثيف من مخلفات الأسمنت، ألقاه بكثرة أحد المصانع االضخمة القريبة من تلك المنطقة. وحاولنا أن نبتعد، لن تراب الأسمنت، وما به من مواد كمياوية، ظل يطاردنا، بعد أن تغير بسببه مذاق الماء.

قالت بلطية: " هيا نختبئ فى هذا الكهف الذى نراه على جانب المجرى".

وفى سرعة، دخلنا من فتحة ليست كبيرة.

وما كدنا نستقر لنلتقط أنفاسنا، حتى اكتشفنا أن الكهف الذى التجأنا لنحتمى فيه. له مدخل آخر، تدفقت منه نحونا كميات من النفايات والعلب الفارغة!!.

قلت لبلطية: "لقد أصبحنا محاصرتين بالتلوث من كل جانب"..

قالت بلطية وهى تكح: "ليس أمامنا إلا المخاطرة لكى نخرج من هذا المكان".

قاطعها علاء: "لقد سمعت قصصا عن أشخاص فقدوا حياتهم فى مثل تلك الكهوف".

قالت وفاء: لقد شعرنا بالموت يقترب منا حقا. ولو بقينا هناك وقتاً أطول، لقتلنا التلوث، لذلك أسعرت بلطية تقول لى: "اختارى المكان الذى نخرج منه: هل تحبين أن تجاز فى بالخروج من الفتحة التى يدخل منها تراب الأسمنت، أم من فتحة العلب والقاذورات؟!.

واخترت الفتحة التى يظهر منها ضوء أكثر، فهذا دليل على أن التلوث بها أقل. واندفعنا أنا وبلطية نخرج بعيدًا عن تراب الأسمنت، وما به من مواد كيماوية.

قال عادل: "إنها ليست مصانع الأسمنت فقط، بل مئات وآلاف المصانع، تصب مخلفاتها السامة على طول مجرى النهر".

قالت وفاء: إن هذه المخلفات هى سب وفاة زميلتنا السمكة، وهى واحدة من عشرات الآلاف من أسماك النيل. وقد قالت لى بطلية: "إن أنواعنا كانت كثيرة، وأعدادنا لا حصر لها، لكن الهلاك أصاب معظمنا، ولم يبق منا إلا أعداد قليلة".

وأكملت وفاء قصتها.قالت:

وفجأة حجب شئ ضوء الشمس عنا، فرفعت رأسى مرة أخرى لأتبين ما الذى يحدث، فشاهدت أنبوبًا كبيراً فوق السطح، يصب ماء لونه أسود، تقذفه علينا باخرة كانت تمر فوقنا. لقد كانت تصب علينا مخلفات دورات المياه الموجودة بها!!

واندفعنا نبتعد فى اشمئزاز، وبلطية تقول: "إنها واحدة من مئات الفنادق العائمة، التى أصبحت تملأ الآن سطح النيل، من القاهرة حتى أسوان".

"هنا أحسست بحزن شديد، وبدأت أشعر أننى أختنق، بعد أن تغير لون ماء النيل ومذاقه ورائحته.واضطررنا أن نقترب من الشاطئ، لنلتقط أنفاسنا التى كادت أن تنقطع!!"

قلت لبلطية: "هنا نستطيع أن نستريح بعيدًا عن التلوث".

لكن بلطية لم تجب، بل أشارت إلى الشاطئ.

كنا على شاطئ إحدى القرى، وقد امتلأ بسيدات يجلسن عليه، ويغسلن الملابس والأوانى فى الماء.

صاحت أمل: "ليس هذا فقط... ذات يوم شاهدت فلاحًا ينظف حصانَه فى مياه النيل".

قال علاء: "وحمارة أيضا!!"

ضحك الأطفال الخمسة، ولكن وفاء لم تشاركهم الضحك.

قالت دعاء: "بل الأسوأ من ذلك، أنى رأيت كثيراً من الأطفال يستحمون ويلعبون فى ماء النيل!"

قال عادل: "لكن هذا ليس بجديد على النيل!"

قال عادل: "إن عدد الناس فى مصر تزايد عشرات المرات، فأصبحوا أحد المصادر الأساسية للتلوث".

وأكملت وفاء: حاولنا أن نبتعد عن ذلك المكان، فوجدنا أنفسنا وسط منطقة شديدة السواد.

قالت بلطية: "انظرى إلي هذه المنطقة.. لقد كانت ملآنه بالنباتات الخضراء الجميلة، فتأملى ماذا أصبحت الآن".

وتأملت تلك الأشياء السوداء، فاكتشفت أنها نباتات قد ذبلت واسودت.

قال عادل: "من المؤكد أنها اسودت بسبب ما يلقى فى النيل من ماء ملوث بالمبيدات الحشرية".

قالت أمل: "إن التلوث لا يقتل الأسماك فقط، بل يقتل النباتات أيضا... إنه يقتل كل حياة فى الماء، الذى تعتمد عليه كل الكائنات الحية".

قالت وفاء: وبعد أن ابتعدنا عن تلك النباتات السوداء، رأينا شيئاً كبيراً يقترب نحونا على شطح الماء. ظننته فى أول الأمر قارباً أو مركباً، لكنه كان غريب الشكل.

وكم كان فزعى عندما اقترب منا، واتضح انه جثة حيوان ميت، أقاله الناس فى النيل، كأنه مقبرة، وليس مصدراً للحياة!!

ولم أعد أحتمل الاستمرار فى هذه الرحلة العجيبة، فقررنا العودة بسرعة إلى الفقاعة المعزولة فى "برج العرائس" وأنا أهمس لنفسى: لهم كل الحق فى استقبالى بتلك الطريقة غير الودية!!.

وبعد أن تركتنى السمكة بلطية، اخترت مكانًا فوق جذع شجرة ضخم، كان قد استقر على قاع النيل، جعلته العرائس فى فقاعتها مقاعد للراحة والتأمل. وبغير أن أشعر، وجدت الدموع تنساب من عينى، والزن يملأ قلبى.

وشاهدتني عروس ضخمة الجسم، يبدو على ملامحها الاستهتار وعدم المبالاة، نظرت إلى فى استخفاف، ثم قالت ساخرة: "لماذا تبكين ؟!".

قلت لها: "لأننى رأيت فى رحلتى ما تقشعر له الأبدان، ويرفضه أى عاقل حكيم. رأيت التلوث يغزو نهرنا الحبيب، ويكاد يقضى عليه".

أطلقت تلك العروس ضحكة كلها سخرية، وصاحت بى فى استنكار: "ولماذا يصيبك كل هذا الهم؟ ! إننا، وإن كنا نتميز عن بنى البشر بقدرتنا على أن نعيش داخل الماء، فإننا نستطيع أيضا أن نتنفس الهواء، وان نعيش خارج هذا الماء!!"

قلت لها: "لكن الأسماك والنباتات، وكل ما يعيش فى الماء، يتعرض للهلاك بسبب هذا التلوث!!"

قالت فى استهتار: "مالنا نحن بالأسماك والنباتات، مادمنا نستطيع أن نعيش؟!!"

قلت لها محتجة، وقد أثارنى جهلها واستهتارها: "إن التلوث، عندما يصيب الماء والأسماك والنباتات، لابد أن يصيب أيضا الحيوانات ومحاصيل الحقول. ومن المؤكد أن يصيب الإنسان بعد ذلك، فالإنسان يعتمد فى حياته اعتمادًا رئيسيا علي كل هذه الكائنات".

ثم أضفت فى تأنيب: "أنت تفكرين فى اليوم، ولا تفكرين فى الغد .. وتهتمين بنفسك، ولا تهتمين بالآخرين!!"

قالت: "بل أنت تشغلين نفسك بهموم لايد لك فيها، ولا تقدرين على حلها".

قلت لها: "إذا تخلى كل إنسان عن واجبه، سيصبح العالم خرابًا!!"

***

وفجأة سمعت صوتًا عميقاً، كأنه خرير الماء يقول لى:

اسمعى يا وفاء... لقد سمعت حوارك، وأعجبت بإخلاصك وأمانتك، وفهمك السليم للأمور.. كما أعتقد أنك رأيت الآن ما يكفى من أخطار التلوث، التى تهدد صحتى وحياتى، وصحة وحياة كل إنسان وحيوان ونبات".

أخذت أتلفت حولى، لأعرف مصدر هذا الصوت، فعاد يقول:

"لا تحتارى يا وفاء... أنا ملك النيل العظيم....."

قالت له والدموع تملأ عينى: "لم أكن أتصور أن أرى كل هذا!!"

قال لى: "لذلك اخترتك يا وفاء لمهمة صعبة وهامة جدًا.. منذ الآن، لن تظلى من عرائس النيل. ستخرجين إلى العالم الخارجى، لتبلغى الناس جميعًا أن يكفوا عن تلويث مياهى. وإذا نجحت فى توصيل رسالتى، سيتحول ذيلك إلى ساقين، وتصبحين واحدة من بنى البشر، تعيشين بينهم كما تشائين".

وصمت ملك النيل قليلاً،ثم أضاف فى تأكيد: "ويجب أن يعرفوا أيضا أننى غاضب جدًا..وقد قررت أن أتركهم، وأتحول بالمجرى إلى أماكن أخرى، إذا استمروا على ما هم عليه".

صاح الأصدقاء الخمسة فى صوت واحد :" النيل يتركنا ؟!! إنها كارثة.. هذا معناه الموت لنا جميعًا !! لا تبكى يا وفاء، سوف نساعدك جميعًا فى مهمتك".

***

وفجأة صاحت أمل، وهى تشير إلى وفاء: "انظروا... !!"

ونظر الأصدقاء، وهم لا يصدقون عيونهم.....

لقد اختفى ذيل السمكة، وأصبح لوفاء ساقان مثل بقية الناس!!

لقد نجحت وفاء فى إبلاغ رسالتها إلى الأصدقاء الخمسة، فحقق لها ملك النيل وعده!!

***

واندفع الأولاد نحو جد أمل، كل واحد منهم يحكى له شيئًا ما حدثتهم به عروس النيل.

قالت دعاء: "لقد رأينا عروس النيل التي كانت فى الاحتفال يا جدي!"

وهتفت أمل: "واسمها وفاء.."

وأضاف عادل:" وحكت لنا عن أشياء عجيبة، حدثت لها داخل الماء".

نظر إليهم الجد فى دهشة، ثم صمت يتأملهم لحظة، قال بعدها ضاحكًا: "ماذا تقولون؟! عروس نيل تتكلم؟ ! واسمها وفاء؟!".

قال علاء: " لابد أن نساعدها يا جدى.. إنها تحتاج إلينا جميعًا".

وعاد عادل يقول فى تأكيد: "لقد أرسلها النيل برسالة هامة جدًا إلى عالمنا".

قال الجد وهو يضحك مرة أخرى: "والنيل أيضا يتكلم؟! .. ربما كنتم تحلمون!"

صاحت أمل: "وهل يمكن أن نحلم جميعًا نفس الحلم؟!!"

وفي حماس قال نبيل " حتى لو كان حلمًا، فيجب ان نعمل على تحقيق الرسالة التى أبلغتها إلينا وفاء!!"

وارتفع صوت عادل يقول فى تصميم: "سنذهب إلى كل الناس،ونسألهم:

"ماذا يجب أن نفعل لكى نحافظ على صحة نهرنا العظيم، بعد أن تسببنا فى إصابته بالمرض؟!"

وتساءل معه كل الأصدقاء فى صوت واحد:

"نعم... ماذا يجب أن نفعل؟!"

!؟؟

أنشطة حول القصة

- نقترح عليك أن تشترك فى أحد أو كل الأنشطة التالية:

١- أن تختار اسماً جديدًا لهذه القصة.

٢- أن تختار أحد مواقف القصة، وتعيد كتابته فى شكل حوار تمثيلى، يمكن أن تمثله أنت وأصدقاؤك داخل الفصل الدراسى أو فى المنزل.

٣- أن تكتب خاتمة أخرى من ابتكارك لهذه القصة.

٤- أن تجيب عن السؤال الذى طرحه الأصدقاء الخمسة فى نهاية القصة، وهو : "ماذا يجب أن نفعل ، لكى نحافظ على صحة نهر النيل العظيم، بعد ان تسببنا فى إصابته بالمرض؟".

٥- أن تعيد كتابة القصة كلها من جديد، أو تعيد كتابة أحد مواقفها، من وجهة نظر مختلفة، وبرؤية جديدة، فيها ابتكار وإبداع.

٦- أن ترسم أحد مواقف القصة، ويمكنك أن ترسم أكثر من موقف.